موزعة في أرجاء المقهى بحيث تُسمع في كل مكان بالدرجة نفسها. ولم تكن الإيرانية بقادرة على خدش جناح فراشة؛ حتى غدوّها ورواحها المتواتران ما كانا يثيران غير مراقبة الأعمال التي أغنتها عن مراقبة الروّاد. أما النادلة الفليبينية ذات السمرة الفاتنة فما كانت تهتم بشيء غير رضى سيدتها التي تبادلها بين الحين والآخر نظرة حبٍ حميمة تتجاوز علاقات العمل؛ فكانت تسير الهوينى على بساطٍ من بيض. وأما أنا فلم أكن في نظرهم غير قارئ كتاب لا يحلّ ولا يربط. لذا فقط انصبّ تركيز المراهق القصير على مراقبة العاذلين المحتملين خارج المقهى؛ فمنذ أن دَخَلَ باشر بتفحّص المكان زاويةً زاوية، ومن ثم اختار منضدةً لا يمكن أن يرى من يجلس حولها أحدٌ من الخارج. وجلست الفتاة الطويلة وظهرها الى واجهة المقهى يلاصقها صاحبها الأسمر الطويل، بينما جلست القصيرة وظهرُها الى الممر الرئيسي في المقهى، بحيث لا يستطيع أن يرى متسوّقو «الكيك» أياً من الاثنتين إلاّ بحركة متعمّدة.

كانوا يجلسون متحفزين للكلام، للملامسة، للذوبان، تحتدم نفوسهم بصراعات لم يخفها اضطرابُ حركاتِ أيديهم، أو انكساراتُ نظراتهم وتوهّجاتها. ولا بد أنهم أحسّوا بوطأة تجربة كبرى يمارسونها لأول مرة، فأرادوا أن يجتازوها بسلام وعلى أفضل وجه. بيد أنهم أعوزتهم التجربة، فظلوا صامتين برهة لا يعرفون ما يفعلون، ينتظرون أن يقوم أحدهم بمبادرة تفتح الباب للآخرين. ولعل انتفاض المراهق القصير حينما رأى شاباً يمرّ قرب الشباك في الشارع وينظر نحوهم قد كان رد فعل عفويّاً على ما يشعر به الجميع من توتّر. كنت أقرب الناس الى الشباك، بيني وبين الشارع ستارةٌ بارتفاع قدم من أوراق الظل والزهور، يعلوها زجاج واسع يعطي الانطباع بأن الجالس هو على الرصيف لا في الداخل، وكانت هناك ستارة من مشبك قطني مفتوح على الجانبين لا يمنع الرؤية بل يكمل «الديكور».

أصبح المراهق فجأة بالقرب مني، فتبدّت آنذاك أناقته: الرباط الحريري، والقميص المكويّ بعناية، وشعر كستنائي خفيف، وعينان كبيرتان نافذتان، وبشرة صافية. ومن دون أن يستأذنني أغلق الستارة فلم أعد أرى من الشارع سوى نصفه البعيد، في الوقت الذي أحكم فيه بحركته تلك التستّرَ وستر جلسة العشق الجماعي من المستطرقين في الشارع. فرجعتْ عيناي من جديد إلى قلب الجلسة الجماعية العق متطفلاً عَسَلَ غرام يفيض من أعين عشاق أبرياء ومساماتهم وتقاطيعهم، لا ينبسون بأي نأمة، يطفو هدوء عميق فوق رؤوسهم، هدوء سطحي يغلف قلوباً ممتلئة ناراً وضراماً. كانوا جامدين في الظاهر لكنهم يحتدمون حركة في الداخل، ولم تكن عندهم من وسيلة للتلاحم إلا الأعين، إلا النظرات مسكونةً بالدفء والعذوبة والرغبة.

لم يتحرك المراهق الطويل إلا حركةً واحدة فقط: وضع كفه فوق كف صاحبته، وكانت هذه قد تركت ساعدها الأيسر يمتد على المنضدة فأتاحات له فرصةَ عناق أصابعها، كمن يمسك عصفوراً ساكناً براحته. أغمض المراهقُ عينيه ليتشرّب اللّذة، لذّةَ توحُّد جسديْن بنار خلاّقة محرقة، وكانت مثله قد أغمضت عينيها أيضاً لتبارك ذلك التوحّد المرغوب، وبلهفة عذراء عطشى... في

حلم

ثائر زكي الزعزوع

جميع خلاياه كانت مركزة على الشجرة. دورانُ جسده توقف، وجهُهُ شَحُبَ حتى صار لونه مثل لون ليمونة، ونبض قلبه ارتبك. كان جسده الهزيل يرتبك بشكل ملحوظ. أحسّ، للحظة، بأنّ العالم قد تغير وأنّ هذه المسافة التي تفصله عن الشجرة هي المسافة نفسها التي تبعده عن وعيه بالأشياء. حرّك قدميْه بصعوبة وحاول أن يخطو، لكنه ظلّ ثابتاً في موضعه، كأنّ الطين يمزج خلايا جسده بالأرض. صار قطعةً واحدة مع الطين، وأحسّ بأن قدميه تتحولان بشكل سريع الى طين لزج لا يلبث أن يتجمد. لوّح بيديه وصرخ بشدة، لكنّ صوته لم يخرج من جوفه. جال ببصره على الأشياء المحيطة به كأنه يريد وداعها.

شيئاً فشيئاً، راح يتحوّل إلى كتلة منتصبة من الطين. لم يبق منه سوى رأسه يمارس تلك العلاقة الحميمة في الهواء، كأنه كان يقاوم هذا التطيّن الغريبَ من خلال علاقته بالهواء. صار يتنفس بشدة. ما عاد ينبض فيه شيء سوى عينيه ورأسه. فجأة سمع انفجاراً شديداً، فتح عينيه فرأى وجهَ زوجته باسماً أمامه. حاول أن ينهض من سريره، لكنه لم يستطع. كان جسده متصلباً، وقدماه لا ينبض فيهما الدم. صرخ في وجه زوجته:

ـ أنا مشلول، لا أستطيع أن أتحرك.

هزت زوجته رأسها بحزن وقبّلتْ جبينَه، ثم قالت وهي تفتح نافذةَ الغرفة المطلة على الشارع:

ـ منذ عشر سنوات وأنت مشلول، فما الجديد في الأمر؟